

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 5 (2009) : 93 - 106
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

علماء مسجد خالد بن الوليد بمدينة غرداية ودورهم الريادي في العلم والوطنية

أحمد أولاد سعيد
قسم التاريخ المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

الحركة العلمية التي احتضنها مسجد خالد بن الوليد، أو مسجد "الحفرة" كما اشتهر بغرداية، هي جزء من النشاط العلمي الذي ميز هذه المنطقة بوجه عام. هذا الجهد العلمي لم يخرج عن الأصالة في مبادئه والتكامل في تطبيقاته الواقعية (ولا يبطل هذا الكلام الاختلاف والخلاف اللذان لا تخلو منهما سائر المجتمعات ذات التكوين المتنوع في كل زمان وبلد). ورغم تضييق المحتل الفرنسي فقد جسد فقهاء مسجد خالد صورة ناصعة لهذه الأصالة وذاك التكامل من خلال الاتصالات العلمية التي كانت تتم بين علمائه وعلماء الإباضية ومختلف قرى غرداية في أصالة حافظت –باعتزاز– على الإسلام الصحيح والعربية السليمة ووحدة المواطنين، وهي جهود لم تكن سهلة: إذ قادت بعض علماء هذا الصرح العلمي إلى السَّجن أو النفي.

يقع مسجد خالد بن الوليد في الناحية الغربية لمدينة غرداية القديمة، مجاورا المسجد الكبير للإباضية، المسجد العتيق ومدرسة الإصلاح. ولا تبعد عنه هذه المؤسسات العلمية إلا ببضع مئات من الأمتار، وهو إلى هذا قريب من سوق غرداية، ومُطِل على كثير من الأحياء الحديثة. هذا الموقع الجيد يسّر له أن يصير مقصدا للناس لأداء الصلوات اليومية (وحتى الأسبوعية في السابق)، ومناقشة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى حيازة العلم والوطنية.

إن نظرة ملاحِظة لنشاطات هذا المسجد المنارة توضح أن أشهر علمائه – خلال القرن العشرين[1] – هم السادة المشايخ:

1-بوحميدة زيان بن إسماعيل (الجد) المتوفى بغرداية سنة 1939م.

2-بوحميدة إسماعيل بن زيان، المتوفى عام 1972م.

3-مُحَمَّد الأخضر الفيلالي، المتوفى بضواحي العاصمة سنة 1979م.

4-بوحميدة مُحَمَّد بن عمر، المتوفى عام 1965م.

وهذه نُبذ موجزة عن هؤلاء الأعلام عرفانا لجهودهم التي صنعت جزء من التاريخ الثقافي لمنطقة غرداية، وهي جهود ظلت مغمورة بعيدة عن أيدي الباحثين والطلبة، بسبب الإهمال الثقافي الفردي والمؤسساتي. ونتيجة لضعف التوثيق فإني أشير – هنا – إلى أن كثيرا من أخبار هؤلاء الأعلام تستند إلى مصدرين أساسين: الأول: أشغال ملتقى منطقة للماية[2] وعرش المذابيح، المنعقد سنة 1998م. المصدر الثاني: مقابلات أجريتها مع تلاميذ علماء هذا المسجد. يضاف إلى هذا نزر قليل من الدراسات المتصلة بهذا الموضوع.

الشيخ بن زيان بوحميدة بن إسماعيل (1870 – 1939 م).

1– نشأته الأولى: هو من مواليد بلدة ضاية بن ضحوة (الواقعة في الشمال الغربي لمدينة غرداية) في حدود سنة 1870م. جمع الله له أبوين كريمين من سلالة العلم: فقد كان أبوه إسماعيل الأكبر (1803–1901م) خريج الجامع الأزهر ومدينة فاس، وإمام الناس في بلدته الضاية وما جاورها. وبعد وفاته، وابنه زيان في سن الشباب، أكملت أمه الكريمة وسائر الأقارب رعاية الشاب رعاية علمية حتى صار قاضيا وعالما ترحل إليه العامة والخاصة.

ولم تمنعه الوفاة المبكرة لوالده من الإفادة منه إفادة النجباء، كما يتضح من مهاراته العلمية – التي عرفت عنه بعد ذلك – في علوم شتى: الفقه، الفلك، الحساب، الأنساب... وغيرها. ثم نهل من علم بعض أفراد عائلته العلمية: عائلة بوحميدة، فتمت له معارف أصيلة ومتنوعة.

2–جهوده العلمية: كان سي بن زيان (أو الطالب بن زيان، وهو الاسم الذي اشتهر به الشيخ زيان بوحميدة بين تلاميذه وأقرانه) كثير المطالعة شغوفا بها، لا يتنكر لمناظرة علمية أو نقاش مثمر. وكان – رحمه الله وأرضاه – يتنقل بين ضاية بن ضحوة وغرداية مدرسا وواعظا وقاضيا. وفي غرداية كان مسجد خالد مجلسا لدروسه المتميزة، كما يشهد بذلك بعض تلامذته من أمثال ابنه البار الأستاذ الأديب إبراهيم بوحميدة[3]، والأستاذ الحاج علي بوعبدلي[4] وغيرهما. (هذا والمسجد لا يزال – حينئذ– بسيط البناء، وبعض السواقي القديمة في نواح منه، وما كان ذاك ليحجز أصحاب الهمم عن مقاصدهم) [5].

إن كفاءات الشيخ بوحميدة بن زيان في شؤون الفقه القضائي وحفظ أنساب الناس من حوله رشحه ليصير مستشار كثير من القضاة وذوي المناصب الاجتماعية فيما يعسر

عليهم من مسائل، ينصرفون من عنده بنفس مطمئنة هادئة. ثم إن مهاراته في علميْ: الفلك والحساب كانت تسهلان على المجتمع من حوله استغلالا علميا أفضل لبعض الظواهر الفلكية (كالشمس، القمر، النجوم، الرياح...) لأغراض زراعية، أو أسفار... وغير ذلك.

كان الشيخ ابن زيان معلما في أول أمره، ثم انصرف إلى الإمامة والإرشاد في المساجد – حين تغفل إدارة الاحتلال – وكذا في سائر المناسبات الدينية والاجتماعية، ناشرا – بشهادة الثقات ممن ذكرنا وغيرهم – العلم الصحيح، سائرا في الناس بتهذيب موزون لعقولهم وأنفسهم التي تفشت فيها ضلالات المحتلين لسنوات مديدة.

3– نشاطه الوطني: واجه الشيخ ابن زيان – بحماسة – مساعي التنصير (وقد كان شديدا على الجزائريين في منطقة غرداية، كما في غيرها، حتى لقد استطاع المنصرون إخراج عائلات كاملة من الإسلام إلى النصرانية). فوقف الشيخ بالمرصاد لهذه الحمْلات المغرية رغم التهديدات التي كان يتعرض لها كثيرا. وروى ابنه الأستاذ إبراهيم بوحميدة بعض ما سمع من أبيه في هذا الشأن قائلا: "... ومما نُقل عنه أن رئيس الرهبان رفع في وجهه المسدس مهددا إياه بالقتل، بدعوى أنه يؤلب عليه شبانا كان يحاول تنصيرهم وصدهم عن مبادئ دينهم الحنيف. فما كان جواب زيان إلا أن قال – في ثبات – : أنت حر في جلب الناس إلى دينك، وأنا – أيضا – حر في جلب الناس إلى ديني، وهم أحرار في اختيار أحد الطرفين، فأُفحم الراهب، وانصرف عنه الشيخ تاركا إياه يتلظى في حسرة "(6).

ولم يتوقف الغاصبون عند حد الوعيد بل تجاوزوه إلى التنفيذ: فقد سجن الشيخ الوقور، وأثقل كاهله بالغرامات الظالمة التي لم تزده إلا ثباتا.

4– أعماله الاجتماعية: اشتهر عن الشيخ ابن زيان سخاؤه، خاصة عندما يتعلق الأمر بتكريم حافظ القرآن أو المتقن علما صحيحا. كما عُرف – رحمه الله – بسعيه الذي لا ينقطع في سبيل إصلاح ذات البين ينفق فيه الأموال، ما بوأه منزلة مرموقة بين الناس.

5– آثاره العلمية: تشهد عائلة الشيخ ابن زيان بوحميدة أن أباها قد ترك مخطوطات علمية حافلة بالمعارف، ولكن المؤسف في الأمر أن مداهمات المحتلين المتكررة لمنازل الوطنيين قد أجبرت أفراد العائلة على حرق هذه المخطوطات درء للتنكيل بهم جميعا. ففات الناس بهذا صفوة علم الشيخ في الفلك، الحساب، الأنساب...و غيرها.

6– وفاته: كانت وفاة الشيخ ابن زيان في شهر فبراير من سنة **1939** م، وأُرسلت خطب تأبينه من شمال الجزائر عرفانا بمنزلته العلمية والوطنية. وأظهرت السلطة الحاكمة –

آنئذ – الارتياح بل السرور بوفاة هذا الزعيم والعالم البطل. وقد ترك أولادا بررة ساروا سيرة والدهم علما وأدبا، كان منهم إبراهيم بوحميدة المذكور آنفا، والطيب بوحميدة المتوفى عام 1953م، – وكان هو الآخر – زعيما وطنيا نال ثقة الشعب في مناسبات كثيرة.

الطالب الحاج إسماعيل بن زيان بوحميدة (1901 – 1972م)

الشيخ إسماعيل بوحميدة – أو الطالب إسماعيل كما اشتهر– جسد بصدق ونزاهة نظرية "خير خلف لخير سلف": فكان – رحمه الله وأرضاه – حامل لواء التعليم والإصلاح بعد والده الشيخ بن زيان، بل إنه كان يسعى في التعليم القرآني الرصين حتى قبل وفاة والده، فزاد من بهجة أبيه به، ووقفا معا يواجهان الاحتلال والجهل والتنصير وسواها من الآفات.

1– نشأته الأولى: ولد إسماعيل بوحميدة سنة 1901م بضاية بن ضحوة، ليُكرم –منذ ولادته– بحمل اسم جده الأزهري المتوفى في السنة نفسها. وبضاية بن ضحوة نشأ ونال مبادئ العلوم الأولى على يد والده الفقيه ابن زيان. هذا الأب الشفيق اعتنى بابنه عناية كاملة واجتهد في توفير الوسائل المادية التي تخدم مسيرة ابنه التعليمية.

2– رحلته إلى تونس: كانت الرحلة إلى تونس – أوائل القرن العشرين وأواسطه – تقليدا علميا شائعا، تدفع إليه مكانة جامع الزيتونة التاريخية والإصلاحات التي تمت أواخر القرن التاسع عشر، والتي أثمرت المدرستين: الخلْدونية والصادقية، إضافة إلى مناخ سياسي حر – نسبيا – مقارنة بالجزائر في تلك الأيام. في هذه الظروف انتقل الفتى بوحميدة إسماعيل إلى القطر التونسي وبالضبط على مدينة " نفطة " لمزيد من علوم الفقه واللغة وحفظ القرآن وسائر العلوم المتاحة. تجدر الإشارة إلى أن مما سهل عليه هذه المهمة تواجد الإمام الشيخ مُحَّد الصالح بوزيدي[7] بمدينة نفطة، حيث بعض أهله: فأكرم وفادته ومرافقته، وتكفل والد إسماعيل بنفقاته ورعاية شؤونه حتى تم للابن الطالب من تونس المبتغى، فقفل عائدا إلى مسقط رأسه.

3–جهوده العلمية: ما أن وصل الطالب إسماعيل إلى غرداية حتى شرع يعلم القرآن بطريقة فعالة صار بها شيخ القراء – لسنوات عديدة – بلا منازع. فالتف حوله جمهور من الطلبة من مختلف المناطق والمذاهب (مالكية وإباضية)، ويمكن تلخيص طريقته الجذابة في تعليم القرآن في المعالم الآتية:

1-جسد التخصص العلمي: فرغم أنه كان مفتيا متمكنا وحائزا فقها متينا إلا أنه كرس جهده الأكبر لتحفيظ القرآن للأجيال، تاركا مهمة التدريس الفقهي لعلماء آخرين بالمسجد، كالشيخ الفيلالي والأستاذ مُحَّد بوحميدة بن عمر.

2- كان – رحمه الله – ذا صوت جهْوري قوي الأداء، مؤثرٍ في السامعين والتلاميذ، في بِنية متينة وقورة لا يملك الرائي إلا أن يحترمها.

3-ومن أهم خصاله العلمية ذاكرته الحافظة إلى درجة تثير العجب، كما شهد بذلك تلاميذه الكُثر، حتى لقد كان يملي على عشَرة من الطلبة في وقت واحد كلٌّ في موضعٍ من القرآن، ويصحح لهم جميعا، بين ثانية وأخرى، دون خطأٍ أو تردد.

4-من مواقفه الرائدة أنه أمر بلوحة لطفل ضرير(8) ليرفع عنه الحرج والشعور بالنقص شادا على عزيمته مع أن الضرير غير منتفع باللوحة.

وكان – كمشايخ عصره – شديدا على المتهاونين من التلاميذ، وقد أثمرت هذه التنشئة الصارمة رجالا وإطارات من مثل أخيه الأستاذ إبراهيم بوحميدة، والأستاذ علي بوعبدلي، الأستاذ أحمد بوعامر(9) وغيرهم كثير.

4- أعماله الاجتماعية والوطنية: كانت منزلة الطالب إسماعيل المشرَّفة سببا ليرجع إليه الناس فيما أشكل عليهم من مواقف اجتماعية وأسرية. أما مواقفه الصلبة في مواجهة الفرنسيين فبرهانها رده الجرئ على كبير الرهبان الذي – انتقد تجويده صباح مساء– فأجابه الحاج إسماعيل: " إنما هو كلام الله يصل إليكم لعلكم تهتدون" (10). ولما طلب ترخيصا لمزاولة التعليم سلمت إليه – عام 1952 – رخصة تشدد على السماح له بتحفيظ القرآن دون دروس التاريخ والجغرافيا، وتحذره من تجاوز هذه القيود.

5- وفاته: توفي الحاج(11) إسماعيل سنة 1972م لينطفئ – بموته – سراج وهاج في تحفيظ القرآن بطريقة ماهرة ترسخ آي القرآن في النفوس، كما لا يزال ذلك ظاهرا في نفوس تلاميذه وسائر المصلين بمسجد خالد بن الوليد.

الشيخ مُحَّد الأخضر الفيلالي(1889 – 1979م).

1- نشأته الأولى: الشيخ مُحَّد الأخضر الفيلالي، أو الخَنْقي كما يقول الشيخ عبد الرحمن شيبان (12)، من مواليد خنقة سيدي ناجي، في الشمال الشرقي لمدينة بسكرة، سنة 1889م. ترعرع ببلدته في أحضان أسرة محافظة على أصول الإسلام، فاكتسب هناك مبادئ العلوم الأولى، ثم رحل إلى مدينة قسنطينة حيث الجامع الأخضر والإمام ابن باديس(13).

2- قدومه إلى غرداية: تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فكان الشيخ مُحَّد الأخضر الفيلالي عنصرا نشطا فيها، ينتقل شرقا وغربا ناشرا مبادئها وأنوارها. فصرفته المقادير الإلهية إلى مدينة آفلو (ولاية الأغواط حاليا)، وهناك تيسر لبعض الفضلاء من

مسجد خالد بن الوليد أن يستقدموه إلى غرداية.

3–جهوده العلمية: ووصل الشيخ إلى غرداية خلال سنة 1942م، وشرع في نفخ روحه القوية وقوته الروحية من خلال منهج موزون ثري وذكي يمكن تلخيصه في الوسائل الآتية:

1– مقرَّر تدريسي يتضمن علوم الشريعة واللغة، وهما ما كان يسمح بتدريسه في تلك الظروف، غير أن الشيخ الجليل كان – من خلال دروس التفسير والحديث وسواها – يلبسها من الواقعية ثوبا قشيبا: فيصحح – في غِيرة – الواقع المعيش الذي لا يخلو من الخرافات والبدع ، ويحض – في حماسة – على قلب واقع الجزائريين المقهورين.

2– أعد دارا لإقامة الطلبة الوافدين من خارج غرداية بجوار مسجد خالد (وقد كانوا – قبل ذلك – كلٌّ يقيم عند أقاربه، ولم يكن هذا ليسهل التعلم الكامل)، ثم كلّفت عجوز بالعناية بشؤون الطبخ والتنظيف.

3– قسم الطلبة إلى حلقات (مستويات) تناسب قدراتهم العلمية. وقد كانت للشيخ دروس للعامة بعد العشاء، وأخرى للخاصة من تلاميذه، شأن كل العلماء.

4–كان ينتقل وطلبته في الصيف إلى ضاية بن ضحوة، حيث المكان الرحيب والهواء المنعش، في جوار السجد العتيق هناك.

5– أرسل إلى تونس دفعتين من الطلبة، أولاهما سنة 1946م (وكان من أفرادها الحاج الأخضر الدهمة)، وخرجت وفود المؤمنين إلى ناحية الحي الحاج مسعود (أطراف المدينة – حينئذ –) تودع الطلبة وداع الحجيج، وتولى الشيخ مرافقة تلاميذه إلى غاية جامع الزيتونة، ثم قفل راجعا لإعداد الدفعة الثانية.

6– تميز تدريسه – رحمه الله – بغرس روح النقد والتمحيص في فكر تلامذته. وفي هذا الشأن عرف عنه حرصه على محاربة الأخطاء النحوية واللغوية، ورفضه أن يتحدث طلبته بالدارجة.

7– اهتم العلامة الفيلالي اهتماما مركزا بالفتاة وتعليمها، وفي هذا من منهج جمعية العلماء أثر بارز[(14)].

8– ولم يَغفل –رحمه الله– عن الاتصال بعلماء المنطقة من المالكية والإباضية، فكانت له لقاءات مع الشيخ عدون [(15)] والشيخ ببانو (من مشايخ بن يسجن) وغيرهم[(16)]. وكان الفيلالي – رحمه الله – حريصا على التذكير والتأكيد بأن العدو الحقيقي والأكبر لجميع المذاهب والطوائف إنما هو الاحتلال.

4- نضاله الوطني: عانى الشيخ الفيلالي من كيد المحتل الفرنسي وتضييقه المستمر بسبب نشاطه الوطني الذي يمكن إيجازه في المواقف الآتية:

1- كانت نفسه عامرة بالروح الوطنية لشيخه ابن باديس، وكان الفيلالي يردد على طلبته ما سمعه من أستاذه حين صرح (أي: ابن باديس) إنه لو يجد عشَرة من المخلصين الأبطال لأعلن الثورة على الفرنسيين.

2- الشيخ الفيلالي- كما يشهد تلاميذه - زرع في نفوسهم الشجاعة، ونزع الاعتقاد بأن المحتل خُلق ليسود. وقد ظهرت ثمار ذلك في تلاميذه من أمثال بوحميدة مُحَمَّد بن عمر، الأخضر الدهمة... وغيرهما[17].

3- تصدى شيخنا للمنصرين بشجاعة، خاصة في محاولاتهم الماكرة الموجهة إلى النساء. ومن هنا تتجلى اهتماماته بالفتاة وتعليمعها، ما جعله هدفا مقصودا في حملات التنصير[18].

إن هذه المواقف الوطنية العميقة لم تكن لتستمر دون إثارة حفيظة المحتلين، فنفاه الحاكم الفرنسي من غرداية متهما بالتحريض على تهريب الأسلحة للمجاهدين من الحدود الليبية، وهو نشاط وطني قام به الشيخ الفيلالي في فترة الحرب العالمية الثانية. فاعتقلته فرقة عسكرية من بين تلاميذه بضاية بن ضحوة صيف سنة 1946م[19]، وأُخرج من غرداية [20] ليستقر بزاوية سيدي زروق، غير بعيد عن العاصمة ومنطقة القبائل. وهناك حاول أن يحترف التجارة، لكن نشاطه العلمي والوطني عرضا منزله إلى التدمير، فانتقل إلى تيارت وافتتح مخبزة - بمساهمة بعض المحسنين من غرداية - إلا أن أموره لم تتحسن.

بعد شهرين من نفيه تدخل بعض ذوي النفوذ لدى إدارة الاحتلال فسُمح له بالعودة إلى غرداية، ليعود ويشرع - كما تقدم - في إرسال البعثات العلمية إلى تونس، لأنه صار يتوقع نفيه في كل لحظة [21].

5- مشاهد من تضحياته الاجتماعية:

1- لما ترأس مدرسة قرآنية بزاوية سيدي زروق أقام للناشئة من خلالها نهضة علمية سديدة قبل الاستقلال وبعده. ويشهد تلميذه السيد عبد الله زرباني أنه وجد الشيخ الفيلالي يفترش وتلاميذه حصيرا واحدا والفصل شتاء ذو ثلوج، رغم أن أهل المنطقة قد عرضوا على الشيخ مسكنا خاصا به، إلا أنه أبى الانتقال إليه حتى يُهيأ لتلاميذه إقامة لائقة[22].

2- لم يتزوج العلامة الفيلالي إلا بعد الاستقلال، وقد بلغ - حينئذ - السبعين، مشغولا عنه بمهام التعليم وهموم الأمة.(وقد كان هذا مسلكا لكثير من العلماء العزاب).

3- بعد الاستقلال كان – رحمه الله – مهتما بأمر مسجده – الذي عينته وزارة الأوقاف إماما له بمنطقة بوقرة – أيما اهتمام، وفي زياراته لغرداية كان لا يغفل عن اقتناء الأفرشة الجيدة منها لمسجده هناك (23).

6- تلاميذه: هم أكثر أساتذة غرداية القدماء وأئمتِها المرموقين، من مثل: بوحميدة مُحَمَّد بن عمر، بوحميدة إبراهيم، الأخضر الدهمة، بوحميدة سعيد، بوعبدلي علي، عبد الله زرباني، غريقة سعد، الجيلالي حشاني... وغيرهم كثير.

7- وفاته: توفي الشيخ مُحَمَّد الأخضر الفيلالي بضواحي العاصمة عام 1979م، بعد أن قدم خدمات علمية ووطنية رائدة، حرمته من الحياة الأسرية العادية. واليوم تحمل ثانوية عريقة بغرداية اسمه، فرحمه الله وأرضاه.

الأستاذ الإمام مُحَمَّد بن عمر بوحميدة (1914-1965م)

1- نسبه الشريف ونشأته الأولى: نشأ مُحَمَّد بن عمر بوحميدة، أو سي مُحَمَّد كما هو مشهور، في بيت علم وخُلق، ويشهد التاريخ أن آباءه وأجداده كانوا من فضلاء الناس وعلمائهم: فمنهم خاله الحاج إسماعيل بوحميدة معلم القرآن الفذ البارع(ت 1973م)، ومنهم الطالب بن زيان بوحميدة الخبير بعلوم الفقه والأنساب والفلك والحساب، الصادع بالحق في وجه المحتل الفرنسي(ت 1939م)، ومنهم الحاج إسماعيل بن زيان بوحميدة (الأكبر) المتوفى بضاية بن ضحوة سنة1901م، والذي درس بالأزهر الزاهر. ولا نغفل أن الأستاذ الأديب إبراهيم بوحميدة – حفظه الله – من هذه الأسرة الكريمة التي نشأ أستاذنا الحاج مُحَمَّد بن عمر بوحميدة في أحضانها .

درس سي مُحَمَّد على خاله الطالب إسماعيل بوحميدة بكتَّاب مسجد خالد بن الوليد بغرداية، وتابع دروسا في اللغة الفرنسية بالمدرسة النظامية. عمل – رحمه الله – بالتجارة وكان فيها من المخلصين الحاذقين (24).

2- لقاؤه الشيخَ مُحَمَّد الأخضر الفيلالي: عندما وفد الشيخ الجليل مُحَمَّد الأخضر الفيلالي –رحمه الله– على غرداية (أوائل الأربعينيات) لزمه مُحَمَّد بن عمر بوحميدة وصار من أنجب التلاميذ، حتى إن الشيخ الفيلالي كان ليُشيد به على مسمع من باقي الطلبة، كيف لا وتلميذه النجيب لا يراه الناس إلا وفي يده كتاب أو مجلة تُعنى بالعلم أو بهموم المسلمين في العالم من مثل "المسلمون"، " الرسالة"، "الإسلام"...و غيرها؟

ثم إن سي مُحَمَّد صار مساعدا لشيخه مُحَمَّد الأخضر الفيلالي في دروسه العلمية الخاصة:

فكان سي مُحَّد يقرأ النص من الكتاب الفقهي أو اللغوي ويقوم الشيخ بالشرح، على طريقة الأئمة الكبار[25].

3– صلة الأستاذ مُحَّد بن عمر بوحميدة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأعماله الإصلاحية: كان علم الأستاذ بوحميدة مُحَّد بن عمر الواسع وخُلُقه المستقيم سببين ليرشحه شيخه الفيلالي لإمامة الناس بمسجد خالد بن الوليد، الذي كان آنئذ منارة علمية. وفي سنة 1946م، وباقتراح من الشيخ مُحَّد الأخضر الفيلالي عينت جمعية العلماء من العاصمة الأستاذ مُحَّد بن عمر إماما بالمسجد المذكور[26]، فصار منبره أداة قوية تنير عقول الناس فتزيل منها الخرافات والتخلف وتشحذ من خلال خطبه الهمم. إن مَن يتقصى مسلك سي مُحَّد بن عمر في الإصلاح ليلاحظ انسجامه مع مناهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. فقد كان – رحمه الله– مهتما أيما اهتمام بشؤون أبناء أمته ووطنه: فهذا بيته مفتوح للعلماء والشباب، وقد كان محبا لهم، ويقصده الناس من خارج غرداية فيكرم وفادتهم، ويبقى منزله ملتقى ويستمر هو على هذا النهج رغم تواضع ظروفه المالية. ولقد تخرج على يديه أبطال استشهدوا في ثورة نوفمبر، وتاب بسببه كثير من الذين أسرفوا على أنفسهم بالخمر وغيرها. وكان من منهجه – رحمه الله– أن يذهب إلى حيث يتوقع وجود شاربي الخمر، مع ما في ذلك من حرج، ويلطف لهؤلاء العصاة القول ويترفق في معاملتهم حتى صلح حال كثيرين منهم، ولا يزالون إلى يوم الناس هذا يذكرون له هذا الجميل. وما أشد احتجاجه على بعض أهل التدين لما استغرب ذهابه إلى ترغيب شاربي الخمر، فكان يجيب بأن الذين في المسجد قد وقع الاطمئنان عليهم، والحاجة الآن لدعوة من هو مسرف على نفسه، ومن هو مرتاب [27].

4- جهوده في مقاومة التنصير: كان عقل سي مُحَّد الذكي وقلبه الغيور هما يدفعانه ليقف في مواجهة مرامي الآباء البيض والأخوات البيض. فبذل في ذلك جهده المستطاع ووقى الله بسببه أناسا كُثر من الارتداد عن ملة الإسلام تحت وطأة الجهل والفقر. وبلغ به الأمر أنه كان يرسل بعض النسوة ببعض الهدايا إلى دُور الأخوات البيض ليقدمنها إلى فتيات الإسلام اللاتي كن يتواجدن هناك ويُخشى عليهن من التنصُّر.

5– كفاحه الثوري ومواقفه البطولية: لما تعددت مواقف الأستاذ مُحَّد بن عمر الإصلاحية وخطبه النارية ألقت عليه سلطات المحتل الفرنسي القبض عقب صلاة الجمعة في أكتوبر 1952م، لرفضه المعلَن انتخابات سعت إليها سلطات المحتل الفرنسي. ولكن الجماهير المخلصة هبت كرجل واحد متضامنة مع إمامها ورائدها، فانطلقت في مسيرة حاشدة، لم

تشهد لها غرداية مثيلا، باتجاه مقر الحاكم العسكري، الذي اضطُر صاغرا إلى تحرير الإمام الأستاذ. فعادت به الجموع محمولا على الأكتاف، والشعارات الإسلامية والوطنية تملأ كل مكان، فكان فك أسره تظاهرة نضالية وطنية كبرى.

وفي موسم الحج 1954م كان سي مُحَّد حاضرا، وتوقف زمنا بالقاهرة، حيث لقي وجوها علمية ونضالية زادت جهودها في عزيمته مضاءً. ومع الثورة التحريرية كان للحاج مُحَّد بن عمر موعد، ويمكن إيجاز جهوده الوطنية ضمن البنود التالية:

أ- العضوية البارزة في حزب الشعب [28].

ب- تأطير خلايا الحركة الوطنية [29].

ج- صار مسوؤلا سياسيا للثورة، وكوّن خلايا سرية تابعة لجبهة التحرير الوطني[30].

د- ارتبط بعلاقات ثورية مع سي زيان (الجلفة) سي الحواس، الحاج سلامة (ابن القرارة بولاية غرداية) [31].

هـ- كانت دروسه بمسجد الحفرة (خالد بن الوليد حاليا) تتقد وطنية وثورة، تشربها شباب غرداية فانطلقوا على الجهاد، من هؤلاء: الشهداء: عيسى عمير، مسعود الشحمة، مُحَّد حويشيتي، وغيرهم، ويشهد بهذه التربية الثورية من المجاهدين الأحياء السيد شلاوة أحمد[32].

و- أثناء إضراب 08 أيام سنة 1957م أعتقل الأستاذ بوحميدة مُحَّد [33] ولقي بالسجن صنوف التعذيب حتى لقد شهد الأستاذ محمود ثليجي[34] بأنه لم يكد يعرفه من سوء ما فُعل به -رحمه الله-. ثم أطلق سراحه سنة 1958م فلم يلبث إلا قليلا ثم نُفي من غرداية، فاختار منطقة براقي بالعاصمة مستقرا له.

وببراقي احترف -رحمه الله- التجارة ولم ينثن عن الكفاح، فكان دكانه ممونا لرجال الجبهة بما يستطيع. وعندما توالت على مناطق بالعاصمة تضييقات الفرنسيين وحصارهم أرسل إلى أهل غرداية رسالة بليغة مؤثرة يطلب المؤونة من غذاء ولباس وغيرهما. وفي أثناء مرحلة توقيف إطلاق النار عينته جبهة التحرير الوطني قاضيا شرعيا على ناحية براقي. ولقد كان -رحمه الله- حاضرا حضورا فاعلا عندما فجرت عصابات الجيش السري الفرنسي(o.a.s) سيارة مفخخة بميناء الجزائر العاصمة في 1962/05/02م قتلت عمالا كثرين وجرحت آخرين[36]: فعمل على استقبال الجرحى بمنازل من حي ابن قانة بالعاصمة متجنبا إرسالهم إلى مستشفى مصطفى باشا خشية تعرضهم لانتقام عناصر الجيش السري الفرنسي[36].

6- مساهمته في عمارة الجزائر المستقلة: ومع بزوغ شمس الاستقلال عُين سي مُحَّد منسقا

لجبهة التحرير الوطني ببراقي، ومن أعماله المجيدة في بداية الاستقلال تحويله كنيسة براقي إلى مسجد، بعد أن كان المسلمون يصلون في مستودع بينما الكنيسة مهجورة، فاستلم مفاتحها وطهرها ثم صار إماما متطوعا لهذا المسجد إلى نهاية **1963**. ثم إن وزارة الأوقاف عرفت للرجل فضله، فعينته مفتشا جهويا على البليدة والمناطق الواقعة جنوبها. وفي أثناء رحلة عمل تتضمن زيارة مساجد بالأغواط وغرداية تعرض سي مُحَمَّد إلى حادث سير فارق على إثره الحياة، ليدفن بغرداية بعد نصف قرن حافلة بالأمجاد والبطولات، لكأنه عاش مئة سنة أو تزيد: فرحمه الله وأرضاه.

7- من مواقف سي مُحَمَّد بن عمر التي لا تُنسى:

أ-كان (رحمه الله) شديدا على البدع، ويروى عنه أنه رأى على رقبة امرأة من معارفه تميمة فقطعها موبخا المرأة: تماما كما فعل الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-

ب- أدرك الأستاذ دور الشباب في نهضة الأمة وفلاحها، فأحب الشبيبة وقربها واستمع لها، وكان له نشاط مشكور بالمنظمة الكشفية.

ج- من لمساته الإصلاحية الرمزية إحياؤه بعض الأسماء الإسلامية التي كادت تُنسى: سُكَيْنة، زين العابدين...، وأخرى ذات معان جهادية: الخنساء، جمال الدين(وقد سمى به ابنه إعجابا بجمال الدين الأفغاني - رحمه الله-).

د- كان سي مُحَمَّدا شخصا حركيا، يتنقل بين الأحياء والأعراش، يبذل علمه ونصحه وما تيسر من ماله للجميع مهما اختلفت طوائفهم ومذاهبهم، ما جعله محبوبا بغرداية وما جاورها.

التراث في مسجد خالد بن الوليد

ينبغي الإقرار أن علماء مسجد خالد بن الوليد كانوا من النوع الذي تشغله جهود التعليم والإصلاح عن التصنيف. ولم يسفر البحث عن التراث المخطوط أو المطبوع - حتى هذه اللحظة- إلا عن وثائق بسيطة منها:

1- رسالة أرسلها الأستاذ بوحميدة مُحَمَّد بن عمر من براقي إلى سكان غرداية أثناء الثورة يطلب من خلالها معونات عاجلة.

2- أجزاء من مصحف بيد الشيخ إسماعيل بوحميدة (ت **1973**).

وقد سبق التنبيه إلى أن مخطوطات كثيرة قد أحرقت خشية مداهمات المحتل الفرنسي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نسمع عن مخطوطات ووثاق متفرقة في بعض المكتبات

الأهلية، تحتاج – اليوم – إلى جهود الباحثين الثقات للعناية بها.

المجتمع وفقهاء المسجد: في هذا المجال يمكن أن نلاحظ الملاحظات التالية:

1– كان أكثر الناس يوقرون العلماء المذكورين.

2– وقفت الجماهير تستخلص الأستاذ مُحَّد بوحميدة من سجنه.

3– ساهم بعض الأثرياء بما تيسر من أموالهم إكراما للعلماء والطلبة.

الخاتمة والتوصيات:

مسجد خالد بن الوليد منارة علمية ونضالية قاومت الجهل والتنصير والاحتلال تستحق دراسات أكاديمية أوسع. وهو يؤكد الحاجة إلى مثل هذه المراكز العلمية التي يجتمع فيها علم العلماء وأموال الأثرياء وطاعة غيرهما. ومسيرة علمائه حافلة بالمواقف التي تنتظر مذكرات تخرج أو دراسات عليا أو ملتقيات علمية تنشر فضائلها وخبراتها.

هوامش:

1– اقتصرت على فقهاء القرن العشرين لأن التوثيق متوفر، أما الفترة السابقة – ومع الإقرار بتواجد نشاطات علمية مسجدية المسجد خلالها – إلا أن انعدام الوثائق – الآن– يمنع من الخوض فيها.

2– بلدية في إقليم ولاية الأغواط الشمالي.

3– هو الشاعر القاص المترجم إبراهيم بوحميد، ولد بضاية بن ضحوة سنة 1921م، درّس اللغة العربية بثانويات العاصمة، وكتب للإذاعة روايات منذ نحو خمسين سنة. له إصدارت عديدة في النحو والصرف والقصة والفكر والترجمة ، وهو يستعد لإصدار لأرجوزة في اللغة العربية (النحو وغيره) تضم 1500 بيت.

4– خطيب المسجد العتيق بوسط مدينة غرداية.

5– شهادة الأستاذ علي بوعبدلي في مقابلة معه بالمسجد العتيق، نوفمبر 2004م.

6– جمعية أعيان عرش للماية (ولاية الأغواط)، مدونة أشغال الملتقى الأول لتاريخ منطقة لَلْماية وعرش المذابيح، جويلية 1998م، ص .29

7– هو الشيخ مُحَّد الصالح بوزيدي بن مُحَّد بن حمادي الشريف (1896–1973م). ولد بنفطة التونسية، ودرَس بجامع الزيتونة. ثم صار إماما للمسجد العتيق بوسط غرداية من الخمسينيات إلى أواسط وفاته. برع في الفقه المالكي فكان مرجعا في الفتوى، إضافة إلى مهارته في علم الفرائض. شغل منصب نائب لمفتش الشؤون الدينية بالولاية بعد الاستقلال.

8– هو الشيخ حشاني الجيلالي (1917–1993) إمام اسجد خالد من خمسينيات القرن العشرين إلى وفاته، صاحب صوت شجي، كان أبوه عبد القادر بن صالح من أعيان الأمة بغرداية.

9– خطيب مسجد حمزة بن عبد المطلب بعد الاستقلال.

10– مدونة أشغال الملتقى الأول لتاريخ منطقة للماية وعرش المذابيح، مرجع سابق، ص: .32

11– حج سنة 1954م.

12– في مقابلة معه بضاية بن ضحوة ماي 2005م.

13– هذا النزر الضئيل هو كل ما تيسر لي جمعه عن حياة هذا الرجل رغم اجتهادي في الاتصال بمسقط رأسه بولاية بسكرة، ولكن انعدام معجم جامع لأعلام الجزائر يعسر المهمة. والمعلومات الواردة – هنا – هي ما أخبر به الشيخ تلاميذه: الأخضر الدهمة (إمام، أستاذ ومفتش في التعليم والشؤون الدينية سابقا)، غريقة سعد، زرباني عبد الله وغيرهم من أساتذة غرداية.

14– مدونة أشغال الملتقى الأول لتاريخ منطقة للماية وعرش المذابيح، م.س، ص 56 وما بعدها.

15– (1902–2004م) شيخ مشايخ الإباضية في نهاية القرن العشرين، مثال في العلم والتواضع وتخطي الصعاب، رحمه الله.

16– شهادة الأستاذ زرباني عبد الله (تلميذ الشيخ الفيلالي) في مقابلة معه، جانفي 2005م.

17– شهادة تلميذه الأخضر الدهمة في مقابلة معه بغرداية، فيفري 2004م.

18– مدونة أشغال الملتقى الأول لتاريخ منطقة للماية وعرش المذابيح، م.س، ص 56 وما بعدها.

19– تطور الثورة الجزائرية في ناحية غرداية، رسالة ماجستير، عبد الحليم بيشي، إشراف د. شاوش حباسي، جامعة الجزائر، 2001–2002م، ص .34

20– المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

21– مدونة أشغال الملتقى الأول لتاريخ منطقة للماية وعرش المذابيح، م.س، ص .56

22– شهادة تلميذه زرباني عبد الله في مقابلة معه بغرداية، فيفري 2004م.

23– سُميت إكمالية باسم الفيلالي بمدينة بوقرة عرفانا لجهوده.

24– أشغال الملتقى الأول لتاريخ منطقة للماية وعرش المذابيح، م.س، ص: 37.

25– المرجع السابق، ص 37 وما بعدها.

26– شهادة نجله جمال الدين في مقابلة بغرداية في ديسمبر 2004م. والمؤسف أن وثيقة رسمية – أصدرتها جمعية العلماء بتعيينه – قد ضاعت في ظروف النفي ونقل المتاع.

27– شهادة نجله جمال الدين في مقابلة بغرداية في ديسمبر 2004م.

28– تطور الثورة الجزائرية في ناحية غرداية، م. س، ص .35

29–المرجع السابق، الصفحة نفسها.

30– نفسه.

31– مذكرات المجاهد شلاوة أحمد بن عبد القادر، المنظمة الولائية للمجاهدين بغرداية، إشراف موسى شنيني، ص1.

32– تطور الثورة الجزائرية في ناحية غرداية، مرجع سابق، ص .71

33– المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

34– (1922–2006) لعله أول حائز على الباكالوريا من الجنوب الجزائري، حصل علها سنة 1944م. أستاذ أجيال بيداغوجي بذل جهودا مشكورة قبل الاستقلال وبعده في نشر التعليم ومحو الأمية بقرى غرداية والجلفة. اشتغل بعد الاستقلال مفتشا للغة الفرنسية. كان ذكيا قوي الملاحظة. وقد سمعتُ منه هذه الشهادة التي تخص سي مُحَمَّد بن عمر في مقابلة ببيته في مارس 2003م.

35- شهادة نجله جمال الدين في مقابلة بمنزله في ديسمبر 2007م.

36- شهادة نجله جمال الدين في مقابلة بمنزله في ديسمبر 2007م، إضافة إلى كثير من السكان الذين التقوا بالوفد الذي أرسلته جبهة التحرير الوطني.